الصبح

ما انا بالقاسي ياجارتي ... لكنما ليلتك القاسيه
ما ابهج الافق الذي شقه ... نوري رغما الطف انفاسيه
لا تأمني الليل واحلامه ... فربما تجرحك الآسيه
وربما وطأ لي رحله ... وكان من جملة احلاسيه
هاك احتسي جامي فعند الكرى ... تهيرق الجام يد الحاسيه
وارج لاحلامك ما ترتجي ... فان ابلاسك ابلاسيه
سيري فان الموج من خلفنا ... ينتظر السفينة الراسيه

***

لمياء ما اشقاك من غادة ... اخطأت السعادة الخالده
ما برحت خلال اطمارها ... مطوية كالجثة الهامده
مكتوفة الادراك قد اثرت ... على الحيا حياتها البائدة
ما يصنع الحقل الذي هزه ... الشعور بالقيثارة الراكدة
يغمره العالم كالكوكب الـ ... ـباهت او كالجمرة الخامده
فما اتخذت لغد انما ... لكل ضيف طارق مائده
بالامس قد كنت ابنة طفلة ... واليوم احتا وغداً والده

لا تخدعي نفسك واستيقظي ... يامي ان الليل عات ظلوم
علج من الزنوج قد شاء ان ... يلتهم الجيشين فرسا وروم
مدججا ما برحت خيله ... تشن في كل اصيل هجوم
قد مال من اشعتي قبضة ... نثرها فيه فكانت نجوم
حتى تلاش وعلى وجهه ... الكالح من آثار نوري كلوم
يهمس كالاخرس ما سار في ... قارعة إلا وساد الوجوم
لاتسمعي إلا زفير الحشا ... منه والا همسات الهموم

الخاتمة

حسبك اكثرت وقلب الدجى ... مابين اطفارك اضحى مطاح
اما ترى الغصن واوراقه ... من حزنها تصفق راح براح
واصبحت بعد انجفال الدجى ... تنوح في ظلك ذات الجناح
قد راعها العالم لما رأت ... بأن جنب الليل دامي الجراح
فما الاناشيد التي تملأ ... الافق دويا والاغاني الفصاح
إلا حنينا لفراق الدجى ... لا إنها بشائر للصباح
هذي معاذيري فان لم يكن ... فيها لي الحق فارجو السماح

الادب العربي

في موازين الشباب

بقلم الاستاذ محمود الجوصري
مفتش معارف لواء الموصل

يشن بعض الشباب بين وقت وآخر حملات شديدة قوية على الادب العربي ويرمونه بالضعف والسخف والضحولة وعدم مسايرته ومعايشته الحياة التي يحياها الناس . وهم في اكثر الاحيان ينسلّون من الميدان زاعمين انهم ابطاله وفرسانه لانهم برزوا فيه ولم ينازعهم بطولتهم احد او يستمع الى ندائهم مستمع

هم ينكرون كل شيء من القديم ولو استطاعوا لمزقوا وحرقوا هذا التراث التالد وجعلوه رمادا تذروه الرياح

وعلى النقيض من هذا البعض بعض آخر يتفاءل ويسرف في التعصب وبخاصة لادبنا الحديث ، واذكر انني قرأت مقالا لكاتب عراقي في مجلة (الاديب) البيروتية يبحث عن الحركة الادبية في العراق وكان الكاتب مسرفا في منح الرتب والالقاب والحلل الجميلة زاعما ان العراق مملوء بالادباء على اختلاف مدارسهم واتجاهاتهم ، واخذ يعدد اسماء الاحياء والاقرباء والانسباء حتى خلته ـ ولما انته من المقال ـ انه سيعدد البهاليل الظرفاء من الادباء العباقرة . ولهذا الكاتب اقران يقرونه على رأيه ويتمذهبون بمذهبه .

ثم تكتل بعض شبابنا واتخذوا لنا (حزبا) وكان بين هذه الكتلة جماعة تحسن التعبير عن مقاصدها بلغة سليمة ـ بعض السلامة ـ نثراً او نظماً ، ولكن نثرها لم يتعد النثر العادل الذي بينه وبين النثر الفني مراحل ومراحل ، وشعرها المزعوم لا يتجاوز النظم الذي لا يسمو به قلب خفاق وعقل خلاق .

تحزبت هذه الكتلة لبعضها فصار كاتبها اديباً عبقريا كبيراً كما ينعتونه واصبح ناظمها شاعراً فحلا كما يصفونه ، حتى صاروا يرشحون بعضهم لزعامة القصة في (العراق) وامارة الشعر فيه ؛ وعدوا كل انتاج غير انتاجهم سخفا وفهاهة ، لانه

سطحي الفكرة عادي المعنى غث اللفظ .

وعلة هذه الاتجاهات المتضادة هي فقدان موازين الحياة لأن الحياة اذا فقدت موازينها ومقاييسها واختلط الحابل بالنابل صار الجيد عند البعض رديئاً عند البعض الآخر ولا مانع من العكس لاختلاف العواطف وتعدد الاهواء . ومتى كان للعاطفة مقياس ؟ وللهوى ميزان ؟

وحال الفنون ـ ومنها الادب ـ في هذه الحياة المضطربة كحال النبتة التي تصارع الاعاصير والتيارات المختلفة الاتجاهات وما حولها من اشواك وحشرات ، فهي تضطر الى الاعتداد بنفسها والتسلح بسلاحها لتقوي اشواكها فتغالب الحشرات ، وتقصر من سوقها واغصانها لئلا تعبث بها الريح فتكسر ما طال منها ، وتزهر وتثمر ولكن بقدر محدود لئلا يذهب شيء من نشاطها وقوتها لصد ما يعتدي على حياتها .

اما اذا انتظمت حياة المجتمع وكان الناس اكثر انسجاما وفهما لحياتهم واكثر تقاربا في مبادئهم كانت احكامهم اقرب الى الصواب وادنى من الغاية . والفن يسمو ويسمق ويطول عيشه في مثل هذا الجو الذي تطمئن فيه النفس وينتظم فيه العقل ويرتاح اليه القلب .

وعلة فقدان ميزان النقد الادبي هي اننا نجهل ان في كل فنان جانبين : اولهما (انساني عالمي) يتصل بمواهبه وفطرته التي فطر عليها وبما اودعته فيه الطبيعة من قابلية للغوص في الاعماق والتحليق في السماء ، وثانيهما (اقليمي) يتصل بعصره ومصره اللذين يعيش فيهما .

والفن يتنوع ويسمو تبعاً لتنوع وسمو هذين الجانبين في الفنان . فأبو نواس وابن الرومي والمتنبي والمعري ، أدباء عباقرة سما فيهم الجانب الانساني بلا جدال وسلكوا اتجاهات مختلفة بتأثير العصر والمصر اللذين اثرا فيهم فجعلاهم يسيرون هذا السير وينحون هذه المناحي المختلفة ، ولو عاش ابو نواس في غير ذلك المحيط الفاسق الداعر لما كانت له تلك الشخصية التي عرف بها .

ومن يدري ؟ لعل ابا نواس كان يفقد عندئذ شاعريته فيصبح مغموراً . ومن يدري كذلك عن حال ابن الرومي والمتنبي والمعري لو تغيرت عليهم الازمنة والامكنة ؟

فنحن في نقدنا فن الادب وحكمنا عليه لا يجوز انا ان نغفل هذين الجانبين فنصدر احكاما فجة غير مبنية على فحص ودرس وتحقيق . ونقاد الادب عندنا يهملون زمانه ومكانه في اغلب الاحيان فيفقد ميزانهم كفته الثانية وتكون احكامهم مختلفة تدعو الى العجب والاستغراب .

ونحن اذا انصفنا ادبنا يجب ان نقول لهؤلاء (القضاة) ولمن يدعون ان بايديهم موازين النقد : انكم اهملتم سماء الفن وارضه ولا يجوز للفن ان يعيش بدونها ، اما اذا كنتم تزعمون انكم تستطيعون وزن العبقرية والمواهب الخارقة فهذا الزعم وهم باطل وسيقودكم الى غايتين هما : انكار الجاهل للعالم وايمان الجاهل العاجز .

اشتهر حاتم الطائي بالكرم والجود وضرب به المثل ، ولحاتم ديوان شعر لا يجهله كل من احب الشعر ، ولكن سيرته تختلف عن سيرة كرماء الناس وشعر حاتم يختلف عن شعر الشعراء .

كان حاتم الطائي صعلوكا من صعاليك العرب وشجعانهم وفرسانهم وشعرائهم ، والتصعلك ، مذهب اشتراكي (مثالي) نشأ في بادية العرب لفقدان الموازين واضطراب الحياة الاقتصادية فظهرت طبقة حاتم وعروة بن الورد وتأبط شراً وابو النشناش وغيرهم .

وجد هؤلاء الصعاليك الكثير من الناس يتضورون جوعاً ووجدوا السيد المطاع من زادماله واقبلت عليه الدنيا فارادوا قلب هذا المقياس والميزان وراحوا يضربون في الارض غزواً واغتناما للاموال لتوزيعها على الفقراء المعوزين ، فيقول حاتم:

عنينا زمانا بالتصعلك والغنى كما الدهر في ايامه العسر واليسر
كبسنا صروف الدهر لينا وغلظة وكلا سقاناه بكأسيها الدهر

ويقول حاتم في وصف الصعلوك :

ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنى اذا هو لم يركب من الامر معظما
ولله صعلوك يساور همه ويمضي على الاحداث والدهر مقدما
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة ولا شبعة ان نالها عد مغنما
اذا ما رأى يوما مكارم اعرضت تيمم كبراهن ثم صمما

وينشي اذاما كان يوم كريهة صدور العوالي فهو مختضب دما
فذلك ان يهلك فحسني ثناؤه وان عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

وهذه الحركة الاشتراكية المثالية كانت قد وجدت في ذلك العصر الجاهلي بفضل الصعاليك من العرب وبين هؤلاء الصعاليك شعراء وخطباء واجواد وشجعان. وتيار هذه الحركة قد سار وعم قسما من جزيرة العرب. والنبي (ص) يشهد بأن اخلاق حاتم الطائي كانت من اخلاق (المؤمنين) ، فقد روى صاحب كتاب (خزانة الادب) : ان (سفانة بنت حاتم) اتي بها الى النبي (ص) فقالت له : يا محمد ، هلك الوالد وغاب الوافد ، فان رأيت ان تخلي عني ولا تشمت بي احياء العرب فان ابي سيد قومه كان يفك العاني ويحمي الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يطلب اليه طالب قط حاجة فرده ، انا ابنة حاتم طي ، فقال لها النبي صلى الله عليه وآله يا جارية هذه صفة (المؤمن) لو كان ابوك اسلامياً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان اباها كان يحب مكارم الاخلاق .

فدراستنا لحركة (التصعلك) الاجتماعية الاقتصادية تعطينا فكرة صحيحة عن قيمة بعض اضراب الشعر الجاهلي وتضع لدينا ميزانا دقيقا للادباء الذين حرنه في ادراك قيمتهم وانتاجهم الشعري ، ولكن ما هو مذهب التصعلك ؟ ومن هم صعاليك العرب ؟ وكيف تطورت هذه الكلمة حتى صارت — كلمة التصعلك — تطلق على الحقير من الرجال ؟ وهل انتشر هذا المذهب في الحضر كما انتشر في البدو ؟ واي الملوك من العرب ايد او حارب هذه الفكرة ؟ وهل للدين اليهودي او المسيحي اثر في هذه الحركة الاقتصادية مستمد من التوراة والانجيل ؟

كل ذلك نجد معالمه ولكننا لا نستطيع ارجاعه الى ما كان عليه لاننا لم نملك الدراسة المنظمة العميقة ولم نهتد بعد الى قواعد النقد الادبي الصحيحة فنعطي احكاما مضبوطة تهدي المتأدبين من شبابنا الى حقيقة تراثهم الخالد وعبقرية اجدادهم التي تسير مع الزمن !

هذا شأن احد التيارات الاجتماعية التي ظهرت في جاهلية الجزيرة فنتج عنها شعر صعاليك العرب ، ولا يختلف شأن هذا التيار عن بقية شؤون التيارات الاجتماعية على اختلاف اضرابها واستطالها في اهماله وتركه منزويا في زوايا الاهمال والكسل والجهل .

ونحن اليوم نعيش في عصر الذرة ، والدنيا تتسابق نحو المجد ، وفي العالم ادباء فنانون نفاخر نحن بهم ، فهل لدينا ادب عربي بالمعنى الذي يريده الفرنسي او الروسي او الانكليزي ؟

ان انصفنا انفسنا ونظرنا الى جانبي كل انتاج فني فسنقول نعم ! ان في ادبائنا مواهب انسانية عالمية ، ولكن هذه الناحية يعوزها سمو الناحية الثانية واكتماله ، يعوزها الزمان والمكان اللذين يعيش ويسمو فيها الادب ، لان الناحية الانسانية لا يفقدها كل من هب ودب على وجه الغبراء ، والدليل على سمو الناحية الانسانية هو رقي (الشعر الغنائي) بالنسبة لبقية فنون الادب عندنا . فادباؤنا بحاجة الى حياة حرة طليقة توحي لهم الخلق والابداع ، ولكن اين هذه الحياة الحرة وقد ورثوا عن عصورهم المظلمة الف قيد وقيداً موجودا في حياتهم التي الآن رجات عالمية وتيارات ومذاهب هزت كيانهم فتاهوا في بحر متلاطم لا حد له ولا ساحل ؟

اجتمع بأية سيدة غربية واطلب اليها ان تقص عليك قصة حياتها تجد نفسك امام بطلة تصلح ان تتخذ من حياتها قصة ترويها للناس لما فيها من هناء وسعادة او عقدة من عقد الحياة او اتجاهات غريبة . وهكذا يجد القاص الغربي مجالاً ومادة خصبة ومنبعاً لا يغور ماؤه ، وكل ذلك لا يخرج عن نطاق الانسانية الواقعي .

اما هذا القاص العربي فمع من يجتمع من النساء ؟ واذا اجتمع فمع اية امرأة ؟ واية حياة في الشرق تدعو الى العناية والاهتمام والتدوين ؟

أليس من الخطأ ان نحكم على ادبنا العربي — وبخاصة العراقي — بالتخلف في ميدان الادب وعصرنا هو هذا العصر ومكاننا هو هذا المكان ؟